نصوص في عمارة المدينة

المدينة في العالم الإسلامي

هذا الكتاب المرجعي المهم الصادر عام ٢٠٠٨ من إنتاج مجموعة كبيرة من المؤلفين وتحرير عام من قبل (Salma Jayyusi) وإشراف ثلاثة محررين هم (Renata Holod) و (Attilio Petruccioli) و (Andre Raymond) والذي يقع في مجلدين يعد من الكتب المهمة التي تحوي مجموعة كبيرة من المقالات التي تعالج موضوع المدينة في العالم الإسلامي وضمن موضوعات مصنفة تحت خمسة بنود رئيسة.

في القسم الأول من المؤلف الموسوعي يتناول «موضوعات عامة» منها بحث مقدم من (Giulia Nglia) يتناول دراسة تاريخية حول «المدينة العربية مع الإشارة للتمثيل البصري للمدينة المبنية». ويتناول في مبحث آخر ضمن هذا الموضوع (Andre Raymond) أطروحة في «التركيب الفراغي للمدينة»، والمبحث الثالث يعالج مسألة «القانون في المدينة». والورقة الرابعة تعالج موضوع المدن الموروثة، كما ينتهي القسم الأول بمبحث حول «المدن المؤسسة» في العالم العربي منذ القرن السابع وحتى القرن الحادي عشر.

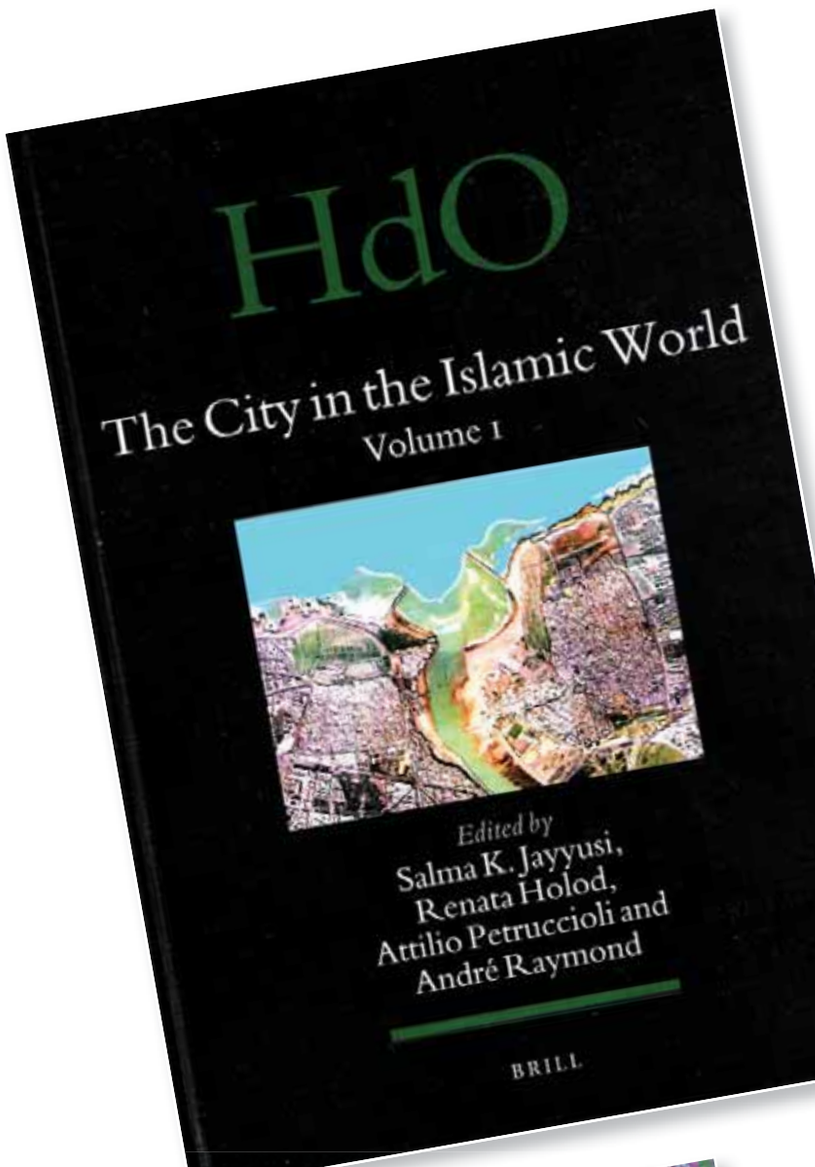

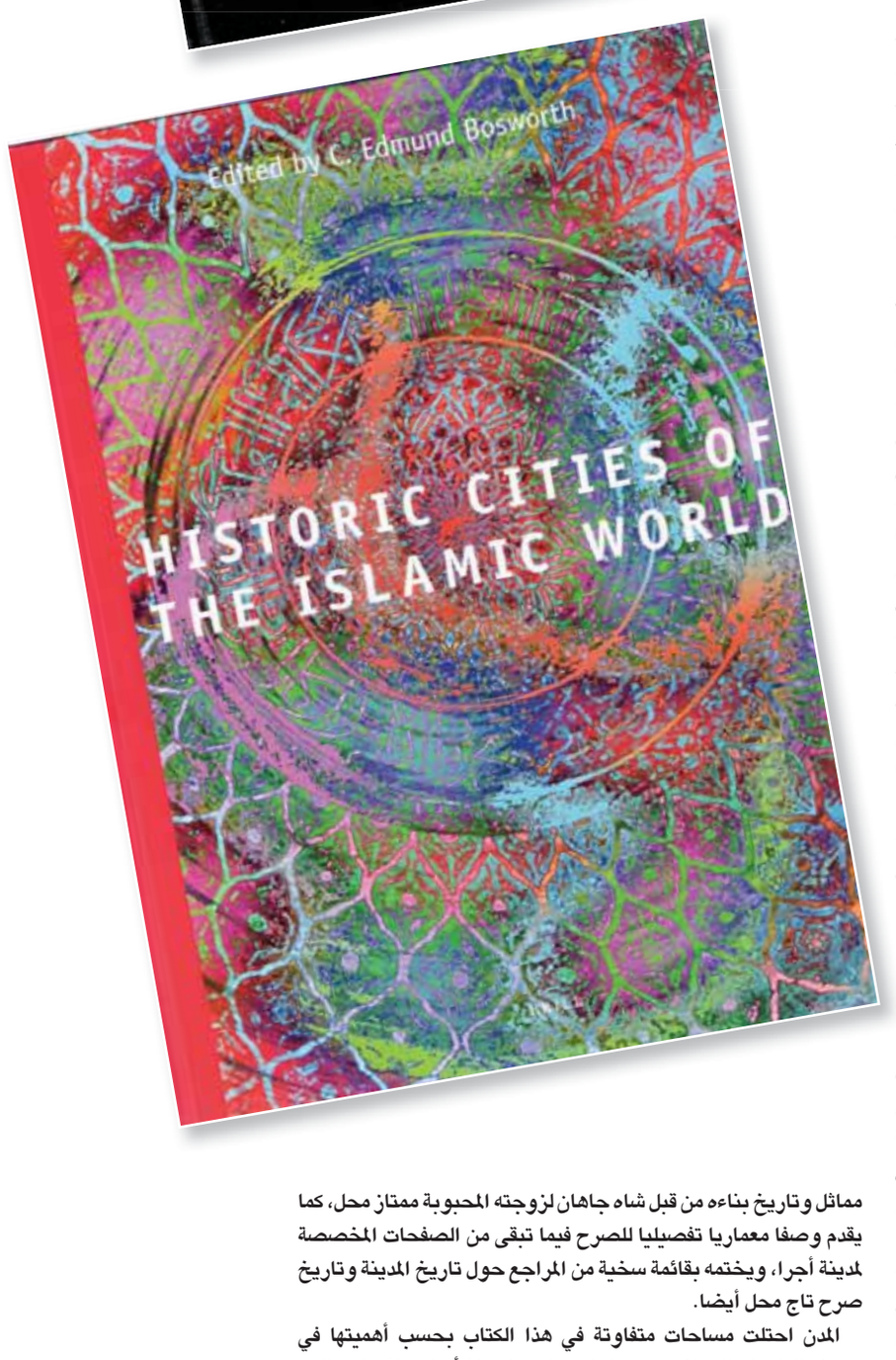

القسم الثاني يتناول «معالم إقليمية» وفيه أربعة مباحث هي: مبحث مقدم من (Pierre Pinon) حول «المدن العثمانية في البلقان»، ومبحث حول «المدن الإيرانية» مقدم من (Heinz Gaube)، والثالث مقدم من (Marc Gaborieau) حول «المدن الهندية»، أما المبحث الأخير فمقدم من (Gilles Veinstein) وهو بعنوان «المدينة العثمانية – من القرن الخامس عشر وحتى الثامن عشر».

القسم الثالث يحوي النصيب الأكبر من الأوراق العلمية وينتهي به المجلد الأول وهو مخصص «للحالات الدراسية» للمدن. ويبدأ بورقة عن «مدينة بغداد في الفترة العباسية» مقدم من (Francoise Micheau). والحالة الدراسية الثانية يقدمها (Halima Ferhat) حول مدينة فاس وعوامل الإندثار. أما مدينة تونس فهي موضوع الورقة الثالثة المقدمة من (Roberto Berardi) للتطرق للتركيبة الفيزيائية للمدينة بالإضافة لمجموعة لمجموعة من مدن شمال إفريقيا. أما الورقة الرابعة حول «المدينة المملوكية» فتقدمها (Doris Behrens Abouseif). ويقدم «أولج غرابار» بحثا حول «القدس الإسلامية – أو القدس تحت الحكم الإسلامي». مدينة حلب هي موضوع الورقة التي يقدمها (Jean–Claude David) بعنوان «حلب: من المدينة العثمانية إلى مدينة سورية». وتقدم (Suraiya Faroughi) ورقة حول «بورسا» وعلاقتها بالإمبراطورية العثمانية. كما يقدم (Ludovico Micara) ورقة حول المدن العثمانية المتوسطية ومدينة طرابلس. وفي ذات السياق في مبحث المدن العثمانية يقدم (Federico Cresti) ورقة حول الجزائر في الفترة العثمانية والمدينة ومتعلقاتها الديموغرافية. كما يقدم باحثون أوراقا حول مدن تركية مثل مدينة اسطنبول – التغيير والتقليد». أما (Attilio Petruccioli) فيتمحور بحثه حول «مدينتي بخارى وسمرقند»، ويقدم (Muhvash Alemi) ورقته حول «شيراز – مدينة الحدائق والشعراء». وتحتل مدينة «أجرا» بالهند موضوع دراسة (Ebba Koch) في ورقته بعنوان «أجرا المغولية: مدينة حدائقية على ضفة النهر». وضمن المدن الهندية تقدم (Allison Shah) بحثها حول «مدينة حيدرآباد القرن التاسع عشر – إعادة كتابة التراث الحضري». أما مدينة صنعاء فيقدم لها مبحثا الأكاديمي (Ronald Lewcock) بالإشتراك مع (Arief Setiawan). ويختم القسم الثالث بمباحث عن مدن الرباط ومدن الصحارى وقواعد التنظيم العمراني.

أما القسم الخامس والأخير والذي يقع في المجلد الثاني فمخصص لعنوان رئيس حول «المدينة الحديثة والمعاصرة»، ويضم ثمانية مباحث كالتالي: الأول حول «الأصالة والمعاصرة في مدن القرن التاسع عشر الحوض متوسطية في الإمبراطورية العثمانية» وهو من إعداد (Jean–Luc Arnaud). المبحث الثاني عنوانه «الحوض متوسطية: تصميمات المعماريين الفرنسيين والإيطاليين في مدن شمال إفريقيا». أما المبحث الثالث فيقدمه (Attilio Petruccioli) بعنوان «الجزائر – مدينة الإستعمار». والمبحث الرابع يقدمه (Jean–Louis Cohen) حول المدينة المعاصرة: مدينة كازابلانكا في العالم الإسلامي». أما المبحث الخامس فهو عن «التحولات – الهوية والعولمة والمدينة المعاصرة» من تقديم (Hassan Uddin Khan). ويقدم (Deeba Haider) بحثا حول مدن الخليج وتحديدا مدينة دبي بعنوان «مدينة دبي ومشاكلها المتزايدة – مدينة تبحث عن هويتها». والمبحث التالي يتطرق لمدينة القاهرة حول المشكلات الديموغرافية والتشكيلية والحسية. أما الورقة الأخيرة فهي حول مدينة بيروت.

المجلد الثاني يحوي القسمين الرابع والخامس. في القسم الرابع الذي يتضمن موضوعات متعلقة «بوظائف المدينة» نجد عشرة أبحاث. الأول قدمه (Calogero Montalbano) بعنوان «دار الماء – عمارة الماء في الدول الإسلامية». المبحث الثاني يعالج موضوع «الإقتصاد في المدينة التقليدية» وقدمه (Andre Raymond) ويقدم ورقة أخرى في نفس القسم بعنوان «إدارة المدينة». والورقة التالية هي من تقديم (David Roxburgh) حول مدينة الحج»، كما يقدم (D. Ruggles) مبحثا يتناول «الإرث الروماني في الزراعة والري من خلال المدن حوض المتوسطية». وفي مفهوم المواطنة يقدم (Mohammed Naciri) ورقة بعنوان «المواطنة – برهان أمام العصر». وفي إطار دراسات البيت يقدم (Attilio Petruccioli) مرة أخرى دراسة حول «البيت ونسيج مدينة الحوض المتوسط». وتقدم (Lucienne Thys–Senocak) ورقة حول «مدينة الأجناس». والورقة الأخيرة في هذا القسم يقدمها (Randi Deguilhem) حول «الوقف في المدينة».

المدن التاريخية في العالم الإسلامي

هذا الكتاب المرجعي الذي يصنف المدن التاريخية في العالم الإسلامي تصنيفا أبجديا من (A–Z)، بحسب اسمها بالإنجليزية، والصادر عام ٢٠٠٧ عن مؤسسة (BRILL) بمقريها بمدينتي (Leiden) و (Boston)، والذي حرره (C Edmund Bosworth) – أستاذ الدراسات العربية بجامعة مانشستر بإنجلترا - يعتبر إضافة لسرد تاريخي مقتضب للمدن للمهتمين من طلبة وباحثين في تخصصات التصميم الحضري والتاريخ المعماري والأنثروبولجيا والدراسات الإسلامية وحتى دراسات العلوم السياسية لاحتواء التصنيف لكل مدينة على أبواب تبدأ من العرض التاريخي وحتى الوقت الحاضر. وأهمية الكتاب لا تنبع من المادة التاريخية إن أخذت بذاتها بل كأرضية لدراسات استشرافية ونقدية مقارنة بين المدن التاريخية وللبناء على المادة النصية ذاتها، وإلا لوقف الباحثون طويلا عند مادة تاريخية مقتبسة من أمهات المراجع التأريخية العربية كنصوص ابن بطوطة مثلا أو المقريزي، والطبري وسواهم – وهي من أبرز مثالب الدراسات السائدة في دراسة المدن بإعادة كتابة نصوص والوقوف عندها دون تقديمها كأسس لدراسات مقارنة بين المدن. فالكتاب يوفر مادة علمية مكثفة عن جميع المدن تقريبا على امتداد العالم الإسلامي من غرب إفريقيا وحتى ماليزيا، والتي كانت على مدى قرون مراكز ثقافية وحضارية مهمة وذات أهمية تجارية واقتصادية وأسهمت في نشر الإسلام كدين وكنظام حياة اجتماعي وسياسي. واللافت أن معظم نصوص الكتاب قد تم اخذها من كتاب «موسوعة الإسلام» المؤلف عام ٢٠٠٤ ولكن تم تطويرها والإستطراد بها وإعادة كتابتها. وتم تحديثها لتشمل مواد تاريخية حديثة بالإضافة لإحصائيات سكانية حديثة نسبيا وتطورات إجتماعية معاصرة. ومن هنا فمادة الكتاب تتضمن عرضا تاريخيا زمنيا يمتد من الماضي للتاريخ المعاصر. ومن المدن التي يعطيها الكتاب أهمية خاصة بالإستطراد في تاريخها ومادتهاالعلمية مدن مثل اسطنبول وبغداد ودلهي بالإضافة لمدينة القدس لأهميتها للأديان الثلاثة – بالإضافة لاستطراد مماثل لمدينتي مكة والمدينة ذاتي الأهمية الدينية للعالم الإسلامي.

يطرح محرر الكتاب فكرة مفادها تلاقي الإسلام كدين جديد في الأمصار المفتوحة مع فكرة التجمعات «الحضرية» حيث المسجد الجامع وحيث تنسجم «الحضرية» في هذه المدن مع روح وفكرة الجماعة والإجتماع، ولا تكاد تجد من يخرج كثير من المؤرخين للعمران الإسلامي عن هذه الأطروحة – رغم وجود أقاليم متناثرة وقليلة خارج هذه التجمعات الحضرية وضمن البيئات القروية أو البدوية لكنها عاشت روح الحياة الإسلامية التي قدمها الدين الجديد وتعاليمه. ومن هنا فدراسة التجمعات العمرانية الحضرية في الفترات الإسلامية تنضوي تحت هذا الإطار والمفهوم العام للعلاقة بين العمران والإسلام بروحه لا بنصوص حرفية.

يلاحظ المتأمل في مقدمة المحرر أنه يقع في مصيدة «النموذج» النمطي الذي يؤطر غالب الدراسات الإستشراقية والوعي الغربي لمفهوم المدينة العربية، أو ما يجمله بعضهم تحت مسمى المدينة «الإسلامية» – وهو ما عرض له نزار الصياد بمراجعة تفصيلية في كتابه الذي سنعرض له تاليا في سياق مراجعتنا في كتابه «مدن وخلفاء». وهذه الصورة النمطية التي اختلفت وتفاوتت بين مستشرق وآخر تميزت بتقديم تصور عن النسيج العمراني الفيزيائي للمدينة العربية ضمن منظور عضوي بتقسيم أجزائها ووصف عناصرها بدلالة مكانية لمواقعها شبه الثابتة في المدينة – وهو ما أورده بسيم حكيم في كتابه «المدينة العربية الإسلامية» وأفرد حالة مدينة تونس وسطحها في مخطط لأسواقها وطرقاتها ومبانيها العامة ومركزية المسجد الجامع بها – رغم أنه تطرق للأسس التخطيطية التي أفرزت الناتج خلافا للمستشرقين ونظرتهم «النمطية». وهي نمطية عكست الوقوف عند عناصرها الحسية، إلى أن جاءت دراسات بحثت في أعمق من الناتج الحسي بالتركيز على الأسس التي تطورت بها المدينة.

ولكن المتأمل يلاحظ أن الدراسات التي تطرقت لأسس تخطيط الناتج الفيزيائي للمدينة قد عكفت، بدلا من تتبع الحالات للمدن بمفردها ثم بمقارنتها كمجموعات ودراسة العوامل التاريخية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية التي صاغتها كما صاغت كل المدن البشرية، بدلا من ذلك فقد همشت العديد من هذه الدراسات جميع هذه العوامل الفاعلة وانكفأت على ربط العمران «بفقه» الإختلاف السكاني والمشاكل اليومية بين السكان واعتبرها، بسطحية، بعض الباحثين نماذج وأسس في تخطيط المدينة، وكان ناتج هذه الدراسات تزاوجا بين النص الديني وبين «الوقائع التاريخية» لما أسموها «بالنوازل» لمحاولة تقديم نماذج للمدينة المعاصرة قياسا على الماضي – قياسا أشبه بقياس الغائب على الشاهد وتمديد الماضي ليذوب عن الحاضر بنوع من القياس اللاعقلي الغنوصي والبياني دون البرهاني.

وبالرغم من أن المحرر يشير لأن بعض عناصر المدينة العربية المشاهدة في مصر وسوريا مثلا بها بقايا وامتدادات من «العالم القديم» على حد وصفه، مثل الحمامات والأسواق، إلا أنه يرى تطورات نمطية وتشابها في جوهر المباني التي يسميها «دينية–عامة» أو (religio–public)، كما أنه يرى اختلافات في طريقة امتداد الأحياء السكنية بنمطية متفرعة وممتدة بكافة الإتجاهات. وبالرغم من أن المحرر يورد التطورات والتشابهات والإختلافات بين المدينة العربية وبين مقابلاتها في مدن العصور الوسطى والقديمة إلا أنه يرى محقا أن مناقشة عوامل تطورها أبعد من مناقشتها في مقدمة موسوعة حول المدن التاريخية في العالم الإسلامي ويحيل القارئ لأدبيات من كتب في المدن العربية ومدن المسلمين مثل لابيدوس وحوراني ورايموند وسارجنت وغيرهم.

يستهل الكتاب المدن أبجديا بمدينة (أجرا) بالهند، حيث يقدم فقرة تعريفية بالإسم وبموقعها الجغرافي بدلالة الإحداثيات ونبذة ديموغرافيات بدلالة إثنيات السكان، وبعلاقاتها بالمغول وبالتالي العمارة المغولية ويشير للصرح المعماري تاج محل. في القسم التالي يستعرض تاريخ المدينة الطويل. وفي القسم الثالث يفرده للمنشآت المعمارية ويبدأ بوصف تاريخي للقلعة ثم ينتقل لتاج محل بوصف مماثل وتاريخ بناءه من قبل شاه جاهان لزوجته المحبوبة ممتاز محل، كما يقدم وصفا معماريا تفصيليا للصرح فيما تبقى من الصفحات المخصصة لمدينة أجرا، ويختمه بقائمة سخية من المراجع حول تاريخ المدينة وتاريخ صرح تاج محل أيضا.

المدن احتلت مساحات متفاوتة في هذا الكتاب بحسب أهميتها في صوغ التاريخ الإسلامي ومراحل تطورها ونشأتها والفترات التي تعاقبت عليها، وفضلا عن ذلك توفر المصادر التاريخية التي وصفتها. وفي هذا المضمار نجد مثلا أن مدينة مثل بغداد تحتل حوالي ١٧ صفحة من الكتاب (٣٠–٤٧). ويغدق الكتاب على القارئ مادة مفصلة عن المدينة ابتداء من موقعها الجغرافي وتاريخ نشأتها، وطبوغرافيتها وتعاقب السلالات عليها ومراحل تطورها وأسماء من حكمها بالرجوع للمصادر التاريخية التي أشبعتها وصفا وتأريخا. ويعزو أصل التسمية لما قبل الإسلام ويناقش فرضيات عديدة حول الإسم. لكن الملاحظ في الكتاب عامة الإشارات المتكررة للتوراة والتلمود وقراءات يمكن أن تكون خلافية بما يتطلب مراجعات وتثبت تاريخي من النصوص المختلفة التي يوردها الكتاب – مما يستدعي القراءة بحذر وتوخي التثبت التاريخي. ويتجلى ذلك بخاصة في مدينة القدس التي يفتتح الإشارة لها باسمها العبري «أورشليم»، ثم باسمها العربي «القدس» أو «بيت المقدس» – ويصفها بأنها العاصمة التاريخية «ليهودا» ثم عاصمة فلسطين وبأنها المدينة التي تحوي معبد سليمان. ولقراءتنا في هذه النصوص بقية

د. وليد أحمد السيد